

## الفكر الجزائري المعاصر - محمد أركون نموذجا -

أولاً: من هو محمد أركون ؟

ولد محمد أركون يوم 1 فيفري 1928 بقرية تاوريرت ميمون بولاية تيزي وزو في منطقة القبائل الكبرى، ونشأ في عائلة أمازيغية فقيرة، وذكر في مراسلاته الشخصية أن عائلته تركت موطنها الأصلي في قسنطينة وقصدت تاوريرت ميمون بحثاً عن الحماية. بدأ تعليمه الابتدائي في تاوريرت ميمون، والتحق بوالده في محافظة عين تموشنت بالغرب الجزائري وهو في التاسعة من العمر، فتعلم العربية والفرنسية. بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة لعائلته لم يتمكن من السفر إلى العاصمة الجزائر لمواصلة تعليمه الثانوي، فدرس في ثانوية يشرف عليها الآباء البيض (نخبة من المعلمين ذوي النزعة التبشيرية) بولاية وهران ما بين (1941-1945).

استكشف في تلك المرحلة الثقافة والأدب اللاتينيين، وتعرف على القيم المسيحية وآباء الكنيسة الإفريقية تورتوليان وسوبريانوس وأوغسطينوس. التحق بكلية الآداب في جامعة الجزائر ما بين (1950-1954) ولم يكتف بدراسة الأدب بل انخرط أيضاً في دراسة الفلسفة والقانون والجغرافيا، وفي منتصف الخمسينيات التحق بجامعة السوربون بتوصية من المستشرق لويس ماسينيون، وفيها حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة في جوان 1969.

تولّى عدداً من الوظائف والمهام، حيث عمل أستاذاً في العديد من الجامعات العالمية كجامعة السوربون تخصص التاريخ الإسلامي (1961-1969)، وجامعة ليون (1970-1972)، وجامعة كاليفورنيا (1969)، وجامعة نيويورك (2001-2003). حصل على العضوية في مجلس إدارة معاهد الدراسات الإسلامية في لندن (1993-2010)، ولجنة تحكيم في هيئة إدارة جائزة آغا خان للهندسة (1989-1989)، وعضو اللجنة القومية للأخلاق والرؤيا العالمية والصحة (1990-1998). كما كان عضواً في اللجنة الدولية لجائزة اليونسكو لأصول تربية السلام لسنة 2002، وعضواً في لجنة تحكيم الجائزة العربية الفرنسية لسنة 2002، وعضواً بالمجلس العلمي للمعهد السويدي بالإسكندرية. وعمل مديراً علمياً لمجلة "أرابيكا" ما بين (1979-2008)، ومستشاراً علمياً لمكتبة الكونغرس بواشنطن (2000-2003)، ورئيس لجنة تحكيم جائزة الشارقة

الثقافية 2010. حصل على عدد من الجوائز والأوسمة من قبيل ضابط "بالمس" الأكاديمي 1 أوت 1979، وضابط لواء الشرف 10 ديسمبر 1984، ونال دكتوراه فخرية من جامعة أكسيتير 18 أبريل 2008. كما حصل على جائزة ليفي ديلا لدراسات الشرق الأوسط كاليفورنيا 10 ماي 2002، وجائزة ابن رشد للفكر الحر برلين ديسمبر 2003، وجائزة الدوحة عاصمة الثقافة العربية فيفري 2010.

توفي محمد أركون يوم 15 سبتمبر 2010 عن عمر ناهز الثمانين عاما، ودفن بمقبرة الشهداء في العاصمة المغربية الرباط تنفيذاً لوصيته.

### ثانياً: مؤلفات محمد أركون

ألف باللغة الفرنسية العديد من الكتب أبرزها "الفكر العربي" ترجمه الدكتور عادل العوا إلى العربية، "الإسلام بين الأمس والغد" ترجمه علي مقلد، "تاريخية الفكر العربي الإسلامي"، "الفكر الإسلامي قراءة علمية"، "الإسلام والأخلاق والسياسة"، "الفكر الإسلامي نقد واجتهاد"، و"استحالة التأصيل". كما ألف "نزعة الأنسنة في الفكر العربي"، "من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي" و"معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية"، "قضايا في نقد العقد الديني"، و"العلمنة والدين" بالإضافة إلى مقالات ودراسات متعددة.

### ثالثاً: فكر محمد أركون

لقد أسس محمد أركون مشروعاً ضخماً أطلق عليه مشروع نقد العقل الإسلامي، وقاد من أجل مشروعه معركة فكرية، هدف منها تفكيك المقدس واللامفكر فيه في التراث العربي والإسلامي، وممارسات العقل العربي والإسلامي في الماضي والعقل الأوربي الحديث، لتبيان التفاوت التاريخي فيما بينهما، من خلال تطبيق جميع المناهج والمصطلحات والعلوم الحديثة، ويحاول أركون أن يبتعد في مشروعه عن الانحياز لمذهب أو عقيدة ضد أخرى، لأنّ مشروعه كما يراه هو مشروع تاريخي وأنتروبولوجي في آن معاً، ومهمته إثارة الأسئلة لكلّ مرحلة من مراحل التاريخ، وعن علاقة مشروعه بالحدثة، فإنّه أراد أن ينشئ فكراً إسلامياً حدثياً له مرجعياته العلمية.

## 1 - مفهوم العقل الإسلامي

إن التعريف الأساسي للعقل الذي ينطلق منه أركون هو التالي: العقل الإسلامي مثله مثل العقل اليهودي والعقل المسيحي، رغم الاختلافات العقائدية والشعائرية، هو عقل ديني لاهوتي، في مقابل العقل العلمي الفلسفي الحديث. إذن فالعقل الإسلامي في نظره ليس شيئاً مطلقاً وأبدياً، وإنما هو صيغة من صيغ العقل، معنى ذلك أنه عقل تاريخي له بداية ونهاية، مثله مثل أي عقل يتشكل في التاريخ. كما حاول أركون في الكثير من الدراسات والبحوث أن يرد على الاعتراض التالي، الذي بدا له أساسياً وله أهميته، والذي يرى أن العقل إذا كان واحداً فينبغي أن لا يكون إسلامياً أو مسيحياً، بل ينبغي التعامل معه على أنه عقل نقدي، يسعى إلى المساءلة النقدية ويرفض الانغلاق داخل حدود أي دين أو طائفة أو مذهب، لأن وظيفة العقل هي الكشف الحر عن الظواهر والمسائل والقضايا، خارج نطاق هيمنة الأحكام المسبقة أو الأطر الطبقيّة عرقية كانت أم دينية، فالعقل البشري إذن واحد صالح للجميع وينطبق على الجميع: " لقد كانت الدعوة إلى عقل أزلي منسجم قبلياً مع تعاليم الوحي دائماً حاضرة، ليس فقط في مختلف مدارس الفكر الإسلامي، بل أيضاً في اليهودية والمسيحية. فالإيمان بالمعطي الموحى به يعضد، وينير، ويرشد العقل البشري، الذي إن ترك لحاله، لا يملك إلا أن يهيم على وجهه. لقد تم في الإسلام تعميم الاعتقاد بأصل إلهي للعقل يضمن التأصيل الأنطولوجي لعملياته".

## 2 - مشروع محمد أركون (الإسلاميات التطبيقية)

لقد هدف محمد أركون إلى بناء "إسلاميات تطبيقية" و ذلك بمحاولة تطبيق المنهجيات العلمية على القرآن الكريم، و من ضمنها تلك التي طبقت على النصوص المسيحية، و هي التي أخضعت النص الديني لمحك النقد التاريخي المقارن و التحليل الألسني التفكيكي و للتأمل الفلسفي المتعلق بإنتاج المعنى و توسعته و تحولاته.

وقد طرح أركون هذا المشروع في الدراسات الإسلامية لكي يهتم به الباحثون العرب و المسلمون عموما، لاسيما و هو مشروع متصل بالبحث في النص الديني بصفة عامة، إنه مشروع مبني بالأساس على التعرف على الظاهرة الدينية حتى تحل الظاهرة الدينية في أفق أوسع من الأفق الإسلامي، لاسيما و أنه يتم الاكتفاء بالنظر إلى تاريخ الإسلام كدين، أي كإطار فكري دون مراعاة ما حدث و ما يحدث في الأديان الأخرى.

ومشروع أركون يفتح بابا أوسع لتاريخ الأديان إذا انطلقنا من القرآن و من منطقته الذي يطرح قضية تاريخ النجاة، أي كيف نعيش حياتنا كمؤمنين متلقين كلام الله تعالى حتى نطبقه في حياتنا قصد النجاة من العذاب ؟ و معلوم أن فكرة النجاة موجودة في التوراة مع موسى و الأنبياء الذين ذكرهم القرآن، و هذا يدعونا إلى الاهتمام بالتاريخ الروحاني الذي يختلف عن التاريخ السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي، فالتاريخ الروحاني يتعلق بوجود كلام الله على البشر.

ويؤكد محمد أركون أن المسلمين مازالوا لم يمارسوا بعد تاريخ الأديان، لأنه غير موجود لديهم، كما يشير إلى أن ما كتبه الشهرستاني عن الملل و النحل، و ما كتبه ابن حزم عن الملل و النحل تخلى و أعرض عنه المسلمون، إذ ركزوا كثيرا على ما ورد في تاريخ الإسلام أكثر مما ركزوا على ما ورد في القرآن نفسه. فهناك حسب أركون فرق بين القرآن الذي هو كلام الله و نزل إلى الجميع، وما قام به الفقهاء المسلمون من جهد نعتمد عليه لفهم الإسلام، و هو بطبيعة الحال فهم متغير حسب الظروف التاريخية و الظروف الثقافية في المجتمع، و خاضع أيضا للقوة السياسية العاملة في المجتمع.

ويركز محمد أركون على ضرورة تفهم القرآن-كلام الله- و الذي يفتح للبشر - وللمؤمنين بالخصوص- آفاقا للتدبير و التفكير و التفقه و التعقل، فكم من مرة تكررت "أفلا تتدبرون" و "أفلا تعقلون" في القرآن الكريم؟ لكن هذا النوع من التفكير المتوسع تم تهميشه و ضيقت مجالاته.

وعبر منهجه تمكن أركون من تكوين فكرة دقيقة عن تطور تاريخ الإسلام، و في هذا الصدد يقر أركون بوجود مذاهب متعددة ظهرت في الإسلام أثناء تاريخ الدولة الأموية و الدولة العباسية، وهناك حرية منحت في أوائل الإسلام (في القرون الأربعة الأولى من الهجرة)، حيث كان المسلمون يتمتعون بحظ لا بأس به من حرية التفكير وحرية المناظرة، و بفضل هذا تعددت المواقف الفكرية، وتكونت مذاهب عديدة في علم الكلام و في الفقه و غيرها من العلوم، لأن القرآن الكريم مفعم بمعان لا يمكن تحديدها في اتجاه واحد فقط، ثم أن هذه المذاهب تطورت في ظروف سياسية، و السياسة دائما تلعب دورها في توجيه البحث في الأمور الدينية، لأن الدولة اهتمت دائما بالدين حتى تستمد منها مشروعيتها كسلطات، و قد أنتج هذا الاستعمال السياسي للجانب الديني مشاكل عديدة، و هذه المشاكل يجب أخذها بعين الاعتبار و إخضاعها للدراسة، لاسيما فيما يتعلق بالتطرف لمعرفة كيف و تحت أي سيطرة أصبحت بعض المذاهب متطرفة و منفصلة.

### 3 - مسألة المعرفة

فيما يخص مسألة المعرفة يقابل محمد أركون بين موقفين: الأول ينظر إلى الوراء صوب العصور الوسطى و يدافع عن القيم الروحية لتلك العصور. و الثاني يحاول استخراج الدروس و العبر من الثورة الإبستمولوجية الحاصلة مع الثورة الفرنسية.

و بالنسبة لهذا الموقف الأخير هناك قطيعة أحدثتها هذه الثورة، و تلك القطيعة ذات طبيعة سياسية بالأساس. فالثورة الفرنسية حدث سياسي ذو طبيعة إبستمولوجية في نظر محمد أركون، و القطيعة السياسية تحققت بعد تحقيق القطيعة المعرفية.

ففي نظره أن تحرير الشرط البشري مسألة حديثة العهد رغم وجود بعض العناصر و البذور في التراث الإسلامي و باقي المتوارثات التوحيدية. فأنظمة الفكر لها تاريخ و صيرورة، و لها انطلاقة و منشأ و مسيرة تطور و صيرورة تغيير نحو التقدم أو الانحطاط و الاحتضار، و هذا قانون الحياة و الكون. و المطالبة بإعادة قراءة النصوص الدينية الأساسية من الارتكاز عليها، لا يعني

في نظر محمد أركون الاستخفاف بتجارب و عبقرية السلف أو إهمال تعاليم النصوص الكبرى و جهود المفسرين، و إنما ما يجب التوق إليه من إعادة القراءة هاته هو الأخذ بعين الاعتبار مسألة التغيير الحاصل في مجال المعرفة البشرية و التاريخ البشري.

و يعتبر محمد أركون أنه لا يمكن نكران وجود مواجهة حاصلة بين النصوص الكبرى التي تبدو متعالية لا تتغير و لا تتبدل و بين التاريخ البشري المتغير و المتبدل بطبيعته. و لعل من أبرز وجوه هذه المواجهة أن الفكر الإسلامي السائد حاليا يرفض كل تاريخية، إنه في نظر أركون لا يزال يكذب التاريخ و الواقع رافضا أن يأخذهما بعين الاعتبار حيث يقف متعاليا عن الواقع. ففي نظر محمد أركون لا يجب الاكتفاء بالنظر إلى الدين فقط في مبادئه السامية و العالية، و إنما وجب النظر أيضا إلى التاريخ و كيف تم تطبيق الدين؟ و كيف تم فهمه؟ و كيف تمت ممارسته؟

#### 4 - معرفة الغرب بالإسلام

يتساءل محمد أركون: هل يمكن التحدث عن وجود معرفة علمية عن الإسلام في الغرب؟ و يعتبر هذا التساؤل بمثابة تساؤل عن صلاحية و موضوعية في النظرة المتوفرة للغرب عن الإسلام، فلا يخفى على أحد أن الحداثة التي عرفها العالم مؤخرا قد مست بشكل أو بآخر ببعض المصالح الحيوية للغرب في جملة من مناطق العالم، و كانت و لا تزال ردود الفعل التي تثيرها قد أنعشت المتخيل الغربي السلبي على الإسلام و ضخمته أكثر من أي وقت مضى، و هذا المتخيل الغربي المُشكّل تجاه الإسلام تغذى منذ خمسينات القرن الماضي من قوة و هيمنة الإعلام، لاسيما بسبب تلاحق الأحداث العنيفة لحركات التحرر الوطني و الحركات الاحتجاجية و التمردية السائدة في المجتمعات الإسلامية آنذاك.

لقد حصل خلط خطير في تشكيل المتخيل الغربي عن الإسلام، خصوصا و أن كل المشاكل ذات الجوهر السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي ألحقت جميعها بالإسلام، و هكذا راح

الخط بين الإسلام كدين، و الإسلام كإطار تاريخي لبلورة ثقافة و حضارة معينة يتأبد و يتعقد أو يتشعب.

وفي هذا الصدد ركز محمد أركون على ضرورة فهم المأساة التاريخية التي تتخطب فيها الشعوب الإسلامية منذ أن اصطدمت بشكل مفاجئ و عنيف بالحضارة المادية و الحداثة العقلية، فلا الثورة الاشتراكية و لا الثورة الإسلامية أتيج لهما أن تحضيا بمرحلة تحضير و استعداد كافية كما حصل للثورة الفرنسية في القرن 18، إذ لم يمهد لهما عن طريق حركة ضخمة من النقد الفلسفي و العلمي للتراث الديني، و نقد الممارسة السياسية لأنظمة الثقافة الموروثة و لمشكلة المعرفة بشكل عام، و بذلك تراكم اللامفكر فيه في الفكر الإسلامي و العربي.

في حين أن الغرب كان قد انخرط منذ ستينات القرن الماضي في عملية البحث عن أشكال جديدة للحداثة، آنذاك فعل العالم الإسلامي العكس أدار ظهره للحداثة، بل دخل في مرحلة استخدام الإسلام كأداة لتمويه التصرفات و المؤسسات و النشاطات الثقافية و التعليمية المستلهمة من قبل النموذج الغربي.

## 5 - العلمانية و الإسلام

يعتبر محمد أركون أن العلمانية مشروع أفرزته المجتمعات الغربية، و بواسطتها انتقل المجتمع الغربي إلى التقدم و الحداثة، و العلمانية في تصور أركون لا تعني القضاء على الدين و إنما وضع حد للغزو الذي يقوم به الخطاب العقائدي للمجتمع، و يرجع أركون أسباب نجاح العلمانية في الغرب إلى ثلاثة أمور: أولاً: القطيعة الحاصلة في نظام الفكر. ثانياً: دور الطبقة البرجوازية التجارية. ثالثاً: الثورة الماركسية-اللينينية التي قامت ضد الطوائف الدينية. و قد حسم الأمر في الغرب باتخاذ منحى نصالي ضد رجال الدين و السلطة الدينية، و كانت مغالاة في العلمانية إلى درجة استبعاد الدور الديني.

ويرى محمد أركون أن العلمانية و الحرية مفهومان مرادفان، وأن الإسلام بذاته ليس مغلقا في وجه العلمانية، حيث شهدت المجتمعات الإسلامية في نظره تجارب علمانية عبر التاريخ، فقد عرفت القرون الأربعة الأولى للهجرة حركة ثقافية مهمة استطاعت الخروج على القيود التي فرضتها السلطة الدينية. فالمعتزلة عالجوا مسائل فكرية أساسية انطلاقا من ثقافتهم المزدوجة المرتكزة على الوحي الإسلامي و الفكر اليوناني، كما أدخل المعتزلة بعدا ثقافيا و لغويا في طريقة طرحهم مسألة خلق القرآن و اعترفوا بمسؤولية العقل و دوره في فهم النص الموحى به و امتلاكه، إلا أن الأمر آنذاك حسم لصالح الخط الأشعري الممثل للخط الرسمي.

ويرى أركون أن المجتمع الإسلامي عرف العلمانية قبل المعتزلة عندما استولى معاوية على السلطة السياسية، و بعد انتصاره خلع عليه رجال الدين رداء الشرعية الدينية، و بذلك تشكلت ايدولوجيا التدبير التي تعطي للحاكم الحق في كل شيء باسم الدين. و يؤكد أركون أن هذا الأمر ليس إلا عملا واقعيلا لا علاقة له بأية شرعية غير شرعية القوة، كما يقر على أن ما يشاع من أن الإسلام لم يعرف التفريق بين الدين و الدنيا (أو بين الروحي و الزمني) قول خاطئ. و في هذا الصدد يتأسف أركون لكون المجتمعات الإسلامية و العربية لا تزال في عموميتها ترفض العلمانية و تجهل معناها الايجابي، و بذلك يتم قمع بشكل أو بآخر كل من حاول اتخاذ موقف حر منفتح على المعرفة و ذلك منذ المعتزلة إلى ابن رشد إلى يومنا هذا.